

# التَّقْوَى

ما هي - أنواعها - مراتبها



الإمام الشيخ  
عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب  
( حول تفسير سورة الحجرات )

من الصفحة ٣١١ حتى الصفحة ٣٣١

للشيخ الإمام  
عبد الله سراج الدين الحسيني  
بناء على توجيهات ولده  
المهندس الشيخ  
محمد محيي الدين سراج الدين  
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة  
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام  
من موقعه الرسمي والوحيد  
[WWW.SRAJALDEN.COM](http://WWW.SRAJALDEN.COM)

قسم مؤلفات الإمام  
- المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

فهنا قد يسأل الإنسان ما هي التقوى؟ وما هي أنواعها، وما هي مراتب التقوى حتى يكون من المتقين الكمل الذين يطلق عليهم القرآن الكريم بأنهم المتقون؟

أما التقوى فهي في اللغة توقي الإنسان ما يضره، فهو يتقي أي: يتوقى الحرّ والبرد وغير ذلك مما يخشى ضرره عليه.

وتقوى الله تعالى هي توقي غضبه وعقابه، وعذابه وعتابه وحجابه، كما جاء في خطبته صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين قدم المدينة قال فيها: «واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السرّ والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله تقي مقته وتقي عقوبته، وتقي سخطه، وإن تقوى الله تبيّض الوجه وترفع الدرجة» الحديث كما رواه ابن جرير بإسناده وغيره.

فتقوى الله تعالى أن تتوقى غضبه، فتأخذ بالوقايات من غضبه وعذابه وعتابه وحجابه، وهذه الوقايات هي قيامك بأوامره وتركك لما نهاك عنه، والأوامر الإلهية كثيرة، والمناهي كثيرة، فإذا كمل ذلك لك بأن امتثلت ما أمرك به وانتهيت عن جميع ما نهاك

عنه فأنت من المتقين، لكن على حسب مرتبة تقواك .

وأما أنواع التقوى: فالتقوى نوعان: تقوى القلوب، وتقوى القوالب - أي: الجوارح والحواس .

أما تقوى القلوب: فعلاقتها بالقلب إيجاباً وسلباً، فالمحبة والتعظيم من أعمال القلوب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فتعظيم شعائر الله تعالى هي من تقوى القلوب، وليست هي كل تقوى القلوب فافهم .

فدلت على أنّ هناك تقوى القلوب، وعلى أنّ لها مطالب كثيرة، ومن أهمّها تعظيم شعائر الله تعالى، وهي تشمل جميع معالم دين الله تعالى، وأحكام شريعته، ومواقفها، ومواضع عباداته، فهي شاملة لجميع مناسك الحج، ومواقع المناسك، والبيت المعظم، والمساجد ولا سيما المسجد الحرام المكي والمدني، ومسجد بيت المقدس، فإنها أفضل المساجد على الترتيب في الأفضلية كما هو معلوم .

ويشمل تعظيم المصحف الشريف، وكُتُب السنة النبوية بأنواعها، وكتب السيرة النبوية، ويشمل كتب العلوم الشرعية، وكتب العقائد الدينية .

ويشمل تعظيم حَمَلَة الكتاب والسنة، وعلوم الدين والشريعة، فإنهم من أعظم شعائر الله تعالى، لأنهم حملة الدين والشريعة ودعاته، وحجة الله تعالى على عباده - وأعني بذلك العلماء الصالحاء العاملين، والهداة المهتدين، الذين قرن الله تعالى ذكرهم بذكر الملائكة، وشهادتهم بشهادة الملائكة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ نفعنا الله تعالى بهم، فإن

الله تعالى احتج بشهادتهم، ووثقها فافهم.

ولا أطيل البحث في ذلك فإني ذكرت طرفاً من ذلك في مناسبات متعددة من كتبي والحمد لله.

وقد جاء في (سنن) أبي داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

فإجلال هؤلاء - أي: تعظيمهم هو تعظيم الله تعالى، والاستخفاف بهم وعدم احترامهم وتكريمهم دليل على النفاق، كما روى الطبراني وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ثلاث لا يستخفُّ بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط».

فتعظيم شعائر الله تعالى هو راجع إلى تعظيم الله تعالى، لأنها شعائره، فمن عظم الله تعالى عظم شعائره، ومن استهان بها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لأنه منافق، ولأنه كالمستهين بجناب الله تعالى رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَن تَقُولُ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتَ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ﴾.

أي: وإنه كنت في الدنيا لمن الساخرين بكلام الله تعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبحملة الكتاب

والسنة، وبالمصاحف وكتب الحديث، وكتب الشريعة، وكان يراها في نظره خرافات أو فيها سخافات، مع أنها جاءت بآيات بيّنات، وحجج وبراهين قاطعات، ولكنه تعامى عن ذلك كله، فأعمى الله تعالى قلبه ﴿وَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فانتهى أمرهم إلى الهلاك والردى.

وإن من أعظم تقوى القلوب محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فوق كل محبوب ومرغوب، والتعظيم له ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومحبة ما يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكراهية ما يكرهه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» متفق عليه.

ومن علامات المحبة الصادقة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم متابعة شريعته، واتباع كتابه وسنته، ومحبة أهل بيته، ومحبة صحابته، ومحبة كل من يحب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى الترمذي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «أحبُّوا الله لما يَغْذُوكُم به من نعمه، وأحبُّوني بحب الله إليَّي، وأحبُّوا أهل بيتي بحبِّي» أي: بسبب حبي لهم.

وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أدّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفیائه»<sup>(١)</sup>.

وروى الإمام أحمد عن سيدنا العباس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان: حتى يحبكم لله ولرسوله» وفي رواية له قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يدخل قلب امرئ مسلم إيماناً: حتى يحبكم لله ولقرايتي».

فمحببة أهل البيت علامة صدق الإيمان.

وقد روى البخاري وغيره أن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لسيدنا علي رضي الله عنه: (والله لقربة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحب إليّ أن أصل من قرايتي).

وفي البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: (ارقبوا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أهل بيته).

وقال عمر بن الخطاب لسيدنا العباس رضي الله عنهما: (والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إليّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من إسلام الخطاب).

فهذا الحال يجب أن يكون حال كل مسلم، يقدم ما يحبه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على كل محبوب له.

(١) رواه الشيرازي وابن النجار وصاحب الفردوس كما في (الفتح).

قال عبدالله :

أولئك ساداتي فجئني بمثلهم  
إذا جمعنا يا أخي المجامع  
سراة سرى نور النبوة فيهمو  
فنورهمو في الناس باد وساطع

وقد تقدم بعض ذلك، ولكن قد أعيد ذكر بعض الأدلة  
لمناسبة الشاهد والمقصود.

وأما تقوى الجوارح والقوالب وتسمى التقوى العملية، وهي  
تقوى المحرمات التي يتعاطاها المذنب مما نهى الله تعالى عنه،  
كشرب الخمر، والسرقه، وما وراء ذلك من المحرمات الكبائر  
والصغائر.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى  
الله عليه وعلى آله وسلم قال له: «اتق المحارم تكن أعبد الناس»  
الحديث كما تقدم.

ويجب على المسلم أن يعتقد أن ما أحله الله تعالى من  
المأكولات، ومن تبادل الأموال وما وراء ذلك فإن ذلك كله هو  
نفع للإنسان وصلاح له في الدنيا والآخرة، وفيه سعادته، وأن ما  
حرمه الله تعالى من أنواع المحرمات كلها على اختلافها فإنها ضرر  
وفساد للعباد والبلاد.

فقد أحل سبحانه الطيبات لأنها نافعة، وحرم الخبائث لأنها  
ضارة قال تعالى: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

وأحل الله تعالى البيع لأن فيه منفعة للطرفين، وحرم الربا  
لأن فيه منفعة لأحد الطرفين، مترتبة على ضرر الطرف الثاني،  
فالمُرَابِيان وإن رضيا بذلك فخالقهما أرحم بهما لا يرضى ذلك

فلم يشرعه قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وهكذا جاء الشرع رحمة للعباد جميعهم.

وأما مراتب التقوى:

فالأولى: هي تقوى الكفر والشرك، وذلك باجتناب ما يُوجب الكفر، والابتعاد عن الشرك الأكبر، وهو أن يجعل مع الله تعالى إلهاً آخر، وهذا معلوم - وأنواع الكفر مفصلة في كتب الردة.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

روى أصحاب (السنن) أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فقال ﷺ: «قال ربكم: أنا أهل أن أتقى، فمن لم يجعل معي إلهاً آخر فانا أهل أن أغفر له».

وفي رواية: «فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر فانا أهل أن أغفر له».

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

فالأمر معلق على المشيئة إن لم يتب من معاصيه؛ إن شاء عذبه وإن شاء غفر له - كما جاء ذلك مصرحاً به في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا أنفسكم، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف - فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً - من المحرمات - فعُوقب به في الدنيا - أي: بأن أقيم عليه الحد - فهو كفارة له وطهور، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله تعالى فأمره

إلى الله تعالى إن شاء عَذَّبَهُ، وإن شاء غفر له» فبايعناه على ذلك) متفق عليه.

وأما مَنْ تاب وأَناب فإنَّ الله تعالى يتوب عليه، كما جاء في كثير من الآيات، والتوبة لها شروط معلومة.

وجاء في رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن قول الله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا أهل أن أتقى، فلا يجعل معي شريك، فإذا اتقيت ولم يجعل معي شريك فانا أهل أن أغفر ما سوى ذلك».

وإن بحر الغفران طام، وإن ساحة المغفرة واسعة لجميع ذنوب المذنبين، ولكن أين المستغفرون، الذين يلمسون غفرانه ورضوانه سبحانه، فإنه تعالى فتح لعباده باب رجاء غفرانه وفضله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

فمغفرة الله تعالى هي واسعة لا تضيق عن الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ﴾.

وإذا كانت الأرض المخلوقة واسعة على أهلها مهما كثروا على ظهرها فإنها لا تضيق عليهم، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾، مع أنها مخلوقة محدودة، فما ظنك بسعة مغفرة

ربّ العالمين التي هي صفة من صفاته التي لا حدّ ولا انتهاء لها، لأنها صفة غير مخلوقة، فإذا فهمت همت ونلت.

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا، ورحمتك أرجى عندنا من عملنا، فاغفر لنا يا خير الغافرين، وارحمنا يا خير الراحمين.

المرتبة الثانية: هي تقوى المحرمات، قال الله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

وفي هذا يقول الحسن البصري رضي الله عنه: (المتقون هم الذين اتقوا ما حرم الله تعالى عليهم، وأدّوا ما افترض الله عليهم) اهـ.

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

### المرتبة الثالثة: اتقاء الشبهات:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقع، إلا وإن لكل ملك حمى، إلا وإن حمى الله في أرضه محارمه، إلا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب» متفق عليه.

فمن تباعد عن الشبهات حصلت له البراءة في دينه وعرضه،  
وسلم من الوقوع في المحرمات، والحلال بين عند كل مسلم  
ومسلمة، فإنه يجب عليهما أن يعلما ما فرض الله تعالى عليهما،  
وأن يعلما ما حرم الله تعالى من المحرمات المعلومه حرمتها في  
الدين بالضرورة، كحرمة الخمر والزنا والسرقه والربا، ومنع  
الزكاة، والغيبه والنميمة، وما وراء ذلك مما يتساوى في علمه  
العوام والخواص.

فإن العلم بما تصح به العقيدة الإيمانية، والعلم بما تصح  
به الأعمال الصالحة، وجميع الأوامر التي أوجبه الله تعالى على  
عباده، والعلم بما حرم الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه  
وعلى آله وسلم مما هو معلوم من الدين علماً ضرورياً؛ العلم  
بذلك كله فرض عين على كل مسلم ومسلمة، كما وردت  
الأحاديث في ذلك، وأما الزيادة في العلم على ذلك، مما قد  
يحتاج إليه الناس فهو فرض كفائي إن قام به البعض سقط الإثم  
عن الباقيين، وإلا فالكل آثمون - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي  
العظيم.

ومن ذلك العلم الكافي ببرد شبه الضالين، وشبهات  
الطاعنين في الدين، والمعترضين على شريعة سيد المرسلين  
صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو على كتاب رب العالمين،  
وغير ذلك فالعلم به فرض كفائي لا يسقط إثم تركه عن الأمة إلا  
إذا وجد العدد الكافي مع الدليل الشافي، والبرهان الوافي،  
والحجة الدامغة، والحكمة الساطعة، التي فيها يظهر نور الحق،  
ويتجلى لجميع الخلق؛ بدون لف ولا التواء ولا تورية، ولا  
إيماء، فذلك كله لا يغني من الحق شيئاً، فالعلم بالمعلومات  
الضرورية من الدين هي فرض عين كما تقدم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه البيهقي وابن ماجه والطبراني وغيرهم من أهل المسانيد والمعاجم عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم...».

جاء هذا الحديث بروايات متعددة عن عدة من الصحابة، وقد رواه ابن ماجه بإسناد حسن، ولفظه: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب».

ولذا قيل:

فمن منح الجهال علماً أضاعه

ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فآه ثم آه - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المرتبة الرابعة: اتقاء ما لا بأس به من المباحات مخافة

الوقوع مما به بأس: المنهيات والمكروهات.

روى الترمذي عن عطية السعدي رضي الله عنه، عن النبي

ﷺ قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع - أي:

يترك - ما لا بأس به حذراً مما به بأس» رواه ابن ماجه والحاكم.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (ما زالت التقوى

بالمؤمنين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام) اهـ.

المرتبة الخامسة: تقوى الله تعالى حق تقاته.

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا

تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

أي: مستسلمون منقادون لله تعالى، إيماناً واعتقاداً

وعملاً، وقولاً، وقياماً وعوداً، وعلى جنوبكم كما جاء في  
(المسند) وغيره أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال  
لعبدالله بن عمرو: «قل: اللهم احفظني بالإسلام قائماً، اللهم  
احفظني بالإسلام قاعداً، اللهم احفظني بالإسلام راقداً، اللهم لا  
تُشمت فيّ عدواً ولا حاسداً.»

اللهم إنني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من  
كل شر خزائنه بيدك.»

روى الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي  
الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:  
«اتقوا الله حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى.»

وجاء من طريق أخرى عن الحاكم وابن مردويه وعبدالرزاق  
وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ  
حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قال: (أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر  
فلا يكفر) - وروي مرفوعاً وموقوفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه قال: (لا  
يتقي الله تعالى العبدُ حق تقاته حتى يخزن من لسانه) اهـ.

وروى أصحاب (السنن) والإمام أحمد عن ابن عباس رضي  
الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:  
﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم  
مسلمون﴾.

قال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت - أي: على الدنيا -  
لأفسدت على أهل الأرض عيشهم، فكيف بمن ليس له طعام إلا  
الزقوم»!!؟

فتقوى الله تعالى بها يتفاضل المؤمنون يوم القيامة، وبها

تختلف رفعة درجاتهم، لأن الجنة أعدت وهيئت ورتبت للمتقين على حسب تقواهم، قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾.

فلقد أعدها الله تعالى يوم خلقها للمتقين، وقوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ﴾ دليل قاطع على أن الجنة هي مخلوقة وموجودة الآن - خلافاً للمعتزلة وغيرهم.

وقد روى أصحاب (السنن) والترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها - فحفظها بالمكارة».

ثم قال: اذهب فانظر إليها، فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد.

ولما خلق النار قال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها - فحفظها بالشهوات.

ثم قال اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فلما رجع قال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها».

وروى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «حُفَّت الجنة بالمكارة، وحفَّت النار بالشهوات».

والمراد بالمكارة التكاليف الشرعية، فإنها ثقيلة على أصحاب النفوس الفاسدة، وأما على أصحاب النفوس الطيبة فإنها رَوْحهم وَرِيحَانهم، ولذتهم فيها قال تعالى - في الصلاة -: ﴿وإنها

لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿١﴾.

فالكسالى وأصحاب النفوس المريضة ترى أن الصلاة ثقيلة عليهم، كما أن الزكاة يستصعبها البخيل الذي استرقه الدرهم والدينار، ويرى أن الزكاة كبيرة ثقيلة، أما على أهل الإيمان والسماحة ففي دفعها سرورهم ونعيمهم ولذتهم.

وهكذا الصيام هو شاق جداً على ضعفاء الإيمان، وأما أهل الإيمان الصحيح فلا يستثقلونه - ولو رأوا شيئاً من المشقة - لأنه يعقبه صحة كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «صوموا تصحوا».

وهكذا القتال في سبيل الله تعالى، قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الآية.

فلذلك سهل عليهم لقوة إيمانهم.

وهكذا التزام تقوى الله تعالى، التزام أوامره، واجتناب مناهيه، ففيه كلفة ثقيلة على المنافقين لا على المؤمنين الصادقين، والأمر يحتاج إلى رجوليّة في الدين قال تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فلما عرفوا وآمنوا بالثواب الأكبر، والجزاء الأوفر، والفضل الكبير من الله تعالى سهّلت عليهم أمور التكليف، وأدوها بانسراح وفرح وسرور، ورضى كامل بدين الله تعالى وشرعه - فهم الرجال في الدين حقاً.

ولذلك لم يزل عظماء السلف الصالح وكبارهم يتواصون  
بالتقوى:

فهذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته وهو  
خليفة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول:

(أما بعد: فإنني أوصيكم بتقوى الله تعالى، وأن تُثَنُوا عليه  
بما هو أهله، وأن تَخْلَطُوا الرغبة بالرهبة، وأن تَجْعَلُوا الإلحاف  
في المسألة - أي: في الدعاء - فإن الله عز وجل أثنى على عبده  
زكريا عليه السلام وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي  
الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾).

ولما حضرت أبا بكر رضي الله عنه الوفاة وعهد إلى عمر  
رضي الله عنه فكان أول ما قال له: (اتق الله يا عمر).

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبدالله رضي الله عنهما:  
(أما بعد: فإنني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه).

واستعمل سيدنا علي أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلاً على  
سرية فقال له: (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بد لك من  
لقائه، ولا تنتهي لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة) اهـ.

وكتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى رجل: (أوصيك  
بتقوى الله عز وجل الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا  
يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها - أي: بالتقوى والأمر بها -  
كثير، وإن العاملين بها قليل - جعلنا الله تعالى وإياك من  
المتقين) اهـ.

ولما ولي الخلافة حمد الله تعالى وأثنى عليه وقال:  
(أوصيكم بتقوى الله عز وجل، فإن تقوى الله عز وجل خَلْفٌ من  
كل شيء؛ وليس من تقوى الله تعالى خلف) اهـ.

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك، وأسعدنا بتقواك، ولا تُشقنا  
بمعصيتك آمين، بجاه سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه  
وعليهم وعلى آله وألهم وعلينا معهم أجمعين يا رب العالمين .

وإذا وقع العبد في مخالفة أمر من أوامر الله تعالى؛ أو  
ارتكب بعض ما نهى الله تعالى عنه ولم يلتزم التقوى فعليه أن  
يبادر إلى التوبة إلى الله تعالى والاستغفار فإن الله تعالى يتوب عليه  
ويغفر له، ويعود إلى مقام تقواه الذي كان فيه؛ إذا صدق في  
توبته، فإن التائب من الذنب هو كمن لا ذنب له .

وتدبر قول الله تعالى : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة  
عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ .

ثم ذكر صفات المتقين فقال : ﴿الذين ينفقون في السراء  
والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب  
المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله  
فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما  
فعلوا وهم يعلمون﴾ .

أي : يعلمون إذا تابوا واستغفروا تاب الله عليهم وغفر لهم .

﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها  
الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ .

فانظر يا أخي المؤمن في عظيم كرم الله تعالى، وسعة  
مغفرته، فإنه سبحانه فتح باب التوبة للتائبين في الليل والنهار،  
ووعدهم بالقبول، وبسط لهم يده سبحانه بالعفو عنهم والكرم، كما  
جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول  
الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «إن الله تعالى يبسط يده في  
الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء

الليل - حتى تطلع الشمس من مغربها».

فلا يُغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

ألم تسمع خبر الثلاثة الذي خُلفوا ماذا أخبر الله تعالى عنهم:

﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾.

فاعتبر وتدبر: لِمَ ذكر الله تعالى خبرهم؟ وسجل ذلك في كتابه الكريم الباقي أبد الأبدین، نعم لِيُعلم الله تعالى الأولین والآخريين ويعلن لهم سعة رحمته وعظيم مغفرته.

روى أبو نعيم عن الشيخ العارف الكبير الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه قال: (ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جل جلاله:

مَنْ أعظمُ مني جوداً والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب أكلؤهم - أحفظهم - في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولّى حفظهم كأنهم لم يُذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي، وأفضل على المسيء.

مَنْ ذا الذي دعاني فلم أستجب له، أم مَنْ ذا الذي سألتني فلم أعطه؛ أم مَنْ ذا الذي أناخ ببابي فنحّيته.

أنا المتفضل ومني الفضل، أنا الجواد ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أني أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألتني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني.

فأين إلى غيري يهرب الخلائق؟ وأين إلى غير بابي يلتجئ العاصون؟).

وقد جاء في كتاب (الزهد) للإمام أحمد في الأثر الإلهي يقول سبحانه: «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماوات والأرض دونه؛ فإن سألني لم أعطه، وإن دعاني لم أجبه، وإن استغفرتني لم أغفر له»<sup>(١)</sup>.

وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت له السماوات والأرض رزقه، فإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن استغفرتني غفرت له».

يا أخي: ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله عز وجل:

يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي».

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي».

يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا - أي: بملاء الأرض - ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وحوبنا، وخطايانا، وأنزل شفاءً من شفائك علينا، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب آمين.

وصلِّ اللهم وسلم على حبيبك الأكرم، ورسولك المعظم،

(١) أي: حتى يتوب

سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، صلاة تليق بك منك  
إليه، وكما هو أهلته، وعلى آله وصحبه، وعلينا وعلى والدينا  
وأحبابنا والمسلمين أجمعين في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه  
علم الله العظيم.

ويرحم الله تعالى قائل هذه الأبيات التي تُعدّ من المجربات  
في دفع الشدائد والكربات:

يا من يُنادى بالضمير فيسمع  
أنت المَعْدُّ لكل ما يُتَوَقَّع  
يا مَنْ يَرَجُّ لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا  
يا من إليه المشتكى والمفزع  
يا من خزائن رزقه في قول كن  
امن فإن الخير عندك أجمع  
ما لي سوى فقري إليك وسيلة  
فبالافتقار إليك فقري أرفع  
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة  
فلئن رددتْ فأَيُّ باب أقرع  
حاشا لجودك أن تُقنَطَ عاصياً  
الفضل أجزل والمواهب أوسع  
بالذلِّ قد وافيتْ بابك عالماً  
أنّ التذلل عند بابك يَنفَعُ  
وجعلتْ مُعتمدي عليك توكلاً  
وبسطتْ كفي سائلاً أتضرع  
فبحق من أحببته وأجبتته  
وأجبت دعوة مَنْ به يَسْتَشْفَعُ  
اجعل لنا من كل ضيق مخرجاً  
والطف بنا يا من إليه المرجع

ثم الصلاة على النبي وآله  
خير الأنام ومن به يستشفع

ويرحم الله القائل:

يا من يراني في علاه ولا أراه  
يا من يجير المستجير إذا دعاه  
يا من يجود على العباد بفضله  
جلّ الجليل وجل ما صنعت يداه

وُنسب للسيد البكري رضي الله عنه:

يا رب إن ذنوبي في الورى كثرت  
وليس لي عمل في الحشر ينجيني  
وقد أتيتك بالتوحيد يصحبه

حب النبي وهذا القدر يكفيني  
صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ويرحم الله القائل:

ركبنا خطايانا وسترك مسبل  
وليس لشيء أنت ساتره كشف  
إذا نحن لم نهفو وتعفو تكرماً  
فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو  
لئن كنت ذا بطش شديد وقوة  
فمن شأنك الإحسان والعطف واللطف  
وإن كنت أوعدت بالنار من عصي  
فوعدك بالغفران ليس له خلف

فالعاصي مهما كثرت معاصيه، وعظمت ذنوبه، فإن باب  
التوبة أوسع، قال سبحانه: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على  
أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو

الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم ﴿ الآيات .

فمن سعة مغفرته دعا المسرفين للتوبة ليغفر لهم ويرحمهم -  
اللهم اغفر لنا فإنك خير الغافرين ، وارحمنا فإنك خير الراحمين .